دور المرأة المسلمة في إدارة اقتصاد المنزل الإسلامي

وعد شكوة
مدرسة لغة عربية ومدققة لغوية

كرم الله الإنسان وجعله خليفة في الأرض، وكلفه بإعمارها كل حسب قدراته وانطلاقاً من موقعه (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) البقرة: ٢٨٦ وإذا كان البيان الإلهي كلف الرجل بالعمل خارج المنزل لتحصيل الرزق وتأمين المال للأسرة (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء) النساء: ٣٤ فإنه كلف المرأة مهمة إدارة المنزل، والحفاظ على نفسها وأسرتها ومالها اعتماداً على الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها)[١] . وقد رفع الإسلام من شأن عمل المرأة من أجل أسرتها، وجعل لها ثواباً كبيراً إذا أدته بإخلاص لأن هذا العمل يناسب فطرتها التي جُبلت عليها، ورد عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قوله لإحدى النساء اللواتي اعترضن على عدم تكليفهن بالجهاد (مهنة إحداكن في بيتها تدرك بها عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى) [٢]، وأعطى الإسلام المرأة الحق في أن يكون لها ذمة مالية مستقلة عن الرجل سواءاً كان أباً أم زوجاً (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ) النساء: ٣٢.

وفرض عليها إيتاء زكاة مالها، كما منحها حرية التصدق بمالها أو بجزء منه على من تشاء، وخاصة أسرتها كي تكون مساهمتها فعّالة في تأمين حاجات أسرتها المادية، ولما سألته السيدة زينب زوجة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن المال الذي تكسبه بعمل يدها وتنفقه على زوجها وأولاد أخيها الأيتام أيحسب لها صدقة؟ أجابها النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم ولها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة)[٣] .

كما حض الإسلام الرجل على مساعدة المرأة في شؤون المنزل لتبرز الأسرة المسلمة في أرقى صور التكامل الاجتماعي؛ فقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها (ما كان النبي يصنع في البيت؟ فقالت كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج)[٤] .

ولو تابعنا المرأة المسلمة في منزلها وإدارتها لشؤونه الاقتصادية لأدركنا دور التربية الإسلامية السليمة التي تنمي ثقة الفرد بنفسه، ونجعله قادراً على تحمل مسؤولية نفسه وقيادة الآخرين بما يرضي الله. فالإسلام أوجب على المرأة أن تتولى مسؤولية تدبير المنزل ومنها المالية وتنظيم نفقات البيت، كما أوجب عليها أن تساهم في تنمية موارد الأسرة، وذلك عن طريق قيامها بتصنيع الكثير من الأشياء مثل المواد الغذائية والحياكة. وبذلك توفر مبالغ كبيرة على الأسرة التي تستغني عن المواد المصنعة خارج المنزل.

وهنا نقف باحترام للسيدة أسماء بنت أبي بكر زوجة الزبير بن العوام رضي الله عنه التي تقول في وصف حياتها: (تزوجني الزبير وماله في الأرض مال ولا مملوك ولاشيء له غير فرسه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونته، وأسوسه وأدق لناضحه [٥]، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير على رأسي، وهي على ثلثي فرسخ، وأدق النوى، وأعجن، ولم أكن أُحسن الخَبْز، فكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق) [٦] فهي في هذا العمل كانت تساهم في تنمية إيرادات البيت، وتطبق مبدأ التدبير من خلال إعادة النظر في ترشيد أو تأجيل بعض النفقات.

وننتقل إلى أم المؤمنين السيدة زينب بنت حجش رضي الله عنها التي اندفعت للعمل، وتحصيل الرزق والتصدق بثمنه على الفقراء، أو ترسله لدعم المجاهدين، وهي التي قال عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديث روته عائشة رضي الله عنها (أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً) وعندما توفيت زينب أدركت النسوة أن المقصود بطول اليد (الصدقة) وكانت زينب امرأة صناع اليد فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق في سبيل الله [٧]. كما ورد عن عائشة رضي الله عنها: كانت زينب تغزل الغزل، وتعطيه سرايا النبي يخيطون به، ويستعينون به في مغازيهم [٨] .

وبما أن الإسلام دين الوسطية، فقد وجه كل فرد إلى الشكل الأنسب للإنفاق وهو الاعتدال. قال تعالى: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً) الإسراء: ٢٩ لذا يجب على المرأة أن تلجأ إلى محاكمة عقلية شرعية قبل إنفاق أي مبلغ، وتحرص على إنفاقه في الوجوه المشروعة، وعندئذ تزيد المدخرات، وتصبح مرتكزاً يستثمر في وقت الحاجة. ومع تطور الحياة العربية في العصور اللاحقة والتطور الثقافي والاجتماعي رصد الأدباء قدرة المرأة المسلمة على إدارة اقتصاد منزلها والسير بأسرتها إلى بر الأمان، وقد أشار الجاحظ في كتابه (البخلاء) إلى قصص عدد من النساء اللواتي نلن رضى الجمهور عن أفعالهن بغض النظر عن خلاف وجهات النظر في وصف ذلك العمل أهو اقتصاد أم تقتير ونذكر منها قصة (مريم الصناع): أقبل على الحاضرين شيخ فقال: هل شعرتم بموت مريم الصناع؟ فإنها كانت من ذوات الاقتصاد، وصاحبة إصلاح، قالوا: فحدثنا عنها. قال: نوادرها كثيرة، وحديثها طويل، ولكني أخبركم عن واحدة فيها كفاية، قالوا: وما هي؟ قال: زوجت ابنتها وهي بنت اثنتي عشرة فحلتها الذهب والفضة وكستها المروي والوشي والقزّ والخزّ، وعلقت المعصفر، ودقّت الطيب وعظمت أمرها ورفعت من قدرها عند الأحماء. فقال لها زوجها: أنّى هذا لك يا مريم؟ قالت: هو من عند الله، قال: دعي عنك الجملة، وهاتي التفسير، والله ما كُنتِ ذات مال قديماً، ولا ورثته حديثاً، وما أنت بخائنة في نفسك، ولا في مال بعلك إلا

أن تكوني قد وقعت على كنز! وكيف دار الأمر فقد أسقطت عني مؤونة، وكفيتني هذه النائبة.

قالت: اِعلم أني منذ ولدتها إلى أن زوجتها، كنت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة من ذلك. وكنا – كما قد علمت – نخبز كل يوم مرة، فإذا اجتمع من ذلك الوقت مكوك بعته.

قال زوجها: ثبت الله رأيك وأرشدك! ولقد أسعد الله من كنت له سكناً، وبارك لمن جُعلت له إلفاً! ولهذا وشبهه قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: من الذود إلى الذود.

وإني لأرجو أن يخرج ولدك على عرقك الصالح وعلى مذهبك المحمود، وما فرحي بهذا منك بأشد من فرحي بما يثبت الله بك في عقبي من هذه الطريقة المرضية، فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها، وصلّوا عليها، ثم انكفؤوا إلى زوجها، فعزوه على مصيبته، وشاركوه في حزنه. ثم اِندفع شيخ منهم فقال: يا قوم! لا تحقروا صغار الأمور، فإن كلّ كبير صغير، ومتى شاء الله أن يعظم صغيراً عظمه، وأن يكثر قليلاً كثره، وهل بيوت الأموال إلا درهم إلى درهم؟ وهل الذهب إلاّ قيراط إلى جنب قيراط؟ إن القارئ المتأني لهذه القصة يلاحظ علاقة أسرية تقوم على المودة والاحترام، لذا بادر الرجل إلى مدح زوجته، والاعتراف بنعمة المرأة الصالحة المدبرة لشؤون منزلها الموصوفة بصفات إسلامية تحتاجها المرأة في كل زمان ومكان، فهي لماحة ذات سرعة بديهة وحسن جواب، كما تتصف بالقدرة على صون نفسها وأسرتها، إضافة إلى أنها صاحبة عقل راجح وقدرة على التدبير، لكن المهم أن يلحظ القارئ تنامي الحس الإنساني عند بطلة القصة، هذا الشعور الرفيع الذي يدفع المرء للاهتمام بكرامة أبنائه، والحرص على مستقبلهم لذا لجأت تلك المرأة إلى: تحديد هدف بعيد يضمن كرامة ابنتها، وإلى التخطيط السليم للوصول إلى تحقيق الغاية المنشودة، وبذلك تكون نفذت وصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم التي قالها لعامر بن سعد رضي الله عنه: (أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم)[٩].

وكذلك العمل على تحقيق الهدف حتى لو كانت الإمكانات المتوفرة قليلة اعتماداً على التربية الإسلامية التي تجلت في بداية الحوار الذي دار بين الزوجين وعلى الإيمان بالهدف، والقناعة بما يتوفر استناداً إلى الإرادة الصلبة والعزيمة القوية هذه المرتكزات التي تمكن الإنسان من الثبات وتدفعه للاستمرار (مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ) البقرة: ٢٣٦، وقد تكللت جهود تلك المرأة بالنجاح في تحقيق الهدف، وبدا جلياً أثر هذا النجاح على الفرد والأسرة مما ينعكس إيجاباً على المجتمع.

فالمرأة في هذا النص انتصرت على نفسها، وعلى رغباتها في البذخ، انتصرت في واحد من نماذج الجهاد الأكبر، واستطاعت أن تغدو عنصراً فعالا في التنمية الاقتصادية للأسرة على أسس ومبادئ الدين الحنيف.

وفي الختام لا بد أن نؤكد على مسؤولية المرأة الجسيمة في قيادة أسرتها، وتدبير نفقات المنزل، وإدارتها بشكل صحيح كي يكون شاهدا على التزامها بقواعد السلوك الإسلامي، وحسن تصرفها، وليس شاهدا على خفة عقلها، وقلة دينها إضافة إلى مسؤولية أكبر وهي نشر ثقافة الاقتصاد الإسلامي المنزلي، وتربية الأجيال على السلوكيات الاقتصادية الإسلامية كي يكون لها دور فعال في تحقيق التنمية الاقتصادية على أسس ومبادئ الدين الحنيف.

المصادر والمراجع :

١. رواه البخاري، كتاب الجمعة، رقم الحديث من فتح الباري ٨٩٣.
٢. أحكام النساء، ابن الجوزي ٢٢٥.
٣. البخاري: كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام، رقم الحديث من فتح الباري ١٤٦٦.
٤. البخاري،: كتاب النفقات، باب خدمة الرجل في أهله.
٥. الناضح: الدّابة التي ينضح عليها الماء من البئر.
٦. الإصابة لابن حجر، ١١٤/١٢.
٧. الطبقات الكبرى، ابن سعد، ١٠٨/٨.
٨. مختصر حياة الصحابة، محمد اليوسف الكاندهلوي، ٢٤١/٢، دار الفكر بدمشق، ط ١.
٩. البخاري: كتب النفقات.